الروايةُ وأسئلةُ الحروب المعاصرة

حبيب سروري

(توطئةٌ افتتاحيّة لِندوة «الرواية والحرب»، في معرض الكتاب العربي – الفرنسي بِنانسي،
18-20 أكتوبر 2024، بمعيّة:
الكاتبة والروائيّة سمَر يزبك [ضيفة شرف المعرض لعام ٢٠٢٤]،
الكاتب والروائي عمَر قدّور، المخرِجة والمؤلفة واحة الراهب)

الفناءُ الخلفيّ لتساؤلاتِ الحروب:

تنعقدُ ندوتُنا حول الرواية والحرب، ونحن نَضطرمُ اليوم في أتونِ حروبٍ متلاطمة في غزّة ولبنان وسوريا واليمن، مهشَّمِينَ بين مطرقة إسرائيل وسنديان إيران، نُراقِبُ موتَنا على الشاشات ليلَ نهار، ضعفاءَ عاجزين، لا حول لنا ولا قوة!
ثمّة سؤالٌ أوليٌّ أزليّ عن علاقة الطبيعة الإنسانية بالحرب، يُخيِّمُ على الفناء الخلفيّ لِكلِّ تساؤلاتنا: «لماذا الحرب؟». سؤالٌ وجّهَهُ «إمامُ الفيزياء الحديثة»: اينشتاين في رسالةٍ بعثَها في يوليو 1932 إلى «إمامِ الغرائز الإنسانية»: سيغمون فرويد. ردّ عليه هذا في رسالةٍ عميقةٍ ضافيةٍ شهيرة.
بيد أن حروب اليوم تضيف أسئلةً جديدةً حيّةً مثل: هل وحشيّةُ تقنيات القوة العسكرية والاستخبارية الإلكترونيّة الحديثة تكفي اليوم لضمان الأمن والانتصار الدائم؟

لن ندخل في تفاصيل هذه الأسئلة الفلسفية هنا، ولا في ثنايا مواضيع جوهريّةٍ أخرى تسمحُ بإدراك أبعادٍ تكميليّةٍ عن ماهيّةِ الحروب وآليّاتها ووظائفها (مواضيعٌ يمكن استخلاصها من مراجع أساسيّة عن نظرية الحرب: «فن الحرب» لسان تزو، «الأمير» لميكيافل، «عن الحرب» لِكلاوسفيتز)، لأنّ همَّ ندوتِنا الرئيس: الرواية.

لماذا الحربُ موضوعٌ أثيرٌ للرواية؟

سؤالٌ بريءٌ ساذجٌ يفرضُ نفسَه: ما الحاجة للرواية عند الحديثِ عن الحروب، فيما كتبُ التاريخِ وعلومِ الاجتماعِ متخصِّصةٌ بذلك؟
الردّ بديهيٌّ طبعاً: إذا كانت تلك الكتب والدراسات تُعطي توصيفاً **ماكروسكوبيّا** لِلحروب كأحداثٍ تاريخيّة، فالروايةُ، كونها «مدرسة الحياة»، حفرٌ **ميكروسكوبيٌّ** عميقٌ في كلِّ حدث، وفي كل صغيرة وكبيرة تمسُّه.

حفرٌ يشتغلُ أساساً تحت سماءٍ مفتوحة: التخييل الروائي. يشتبكُ مع طوفانِ عنفِ الحروب وقصفِها وتدميرِها وخرائبِها ومجازرِها وإبادتها الجماعيّة المروِّعة. يهتمُّ بكلِّ معاناةٍ فرديّةٍ باعتبارها عالَماً شاسعاً بحدِّ ذاته. ويغوصُ في كلِّ أنواع التأمّلات الوجوديّة المحتدمة،

والمشاعر الإنسانية المحمومة (من وصداقاتٍ وعشقٍ وكراهيةٍ وحقد)، التي تتفجَّرُ جميعها في زمن الحروب على نحوٍ استثنائيٍّ حادّ.

الحربُ في الأدب العالمي

يصعبُ أن ننطلقَ نحو موضوع ندوتِنا دون التذكير بأنّ الحربَ موضوعٌ محوريٌّ رئيس لأعمالٍ أدبيّةٍ إنسانيّةٍ خالدة. من يمكنه أن ينسى «الإلياذة» لِهوميروس: ملحمةُ أمِّ الحروب، حرب طروادة، التي تَعلَّمنا منها أن الحربَ، وإن كانت منبعَ الشقاءِ الإنسانيِّ الطامِّ الأكبر، لا تخلو من الجماليات أحيانا؟!

من يمكنه أيضا ألا يستحضرَ تولستوي الذي خلّدَ في «الحرب والسلام» يوميّات الحملة النابليونية في روسيا، ليكشف فظاعةَ الحروب الحديثة وعبثَها، على نحوٍ دامغ لا ينمحي من الذاكرة؟

وهمنجواي الذي كان كعادتِهِ خفيفَ الظلِّ شديدَ التأثيرِ وهو يسرد في «وداعا للسلاح» يوميّات مآسي الحرب العالمية الأولى، و«عهر» الحروب عموما؟

من يمكنهُ أن ينسى موكباً من الروايات، لم يتوقّف مدُّهُ العارمُ حتّى اليوم، مسرحُهُ الحربان العالميّتان الأولى والثانية؟ وكذا الحروب الاستعماريّة (أذكرُ على نحوٍ خاص هنا رواية «فنّ الحرب الفرنسي» لألكسيس جيني، التي نالت جائزة غونكور 2011، والذي عاش راويها معاركَ وهزائمَ حربين استعماريتين: حرب فيتنام الأولى، وحرب الجزائر)؟

لا يمكنني هنا ألّا أشيرَ وأنا أتحدّث عن روايات الحروب، عند ذكرِ جائزةِ الغونكور، إلى أن روايتين في قائمتِها القصيرة الحاليّة لِعام 2024، تتمحوران حول الحروب: «حورٌ عِين» لكمال داوود، عن الحرب الأهلية «العشريّةِ السوداء» في تسعينات القرن الماضي في الجزائر؛ و«جاكراندا» لجائل فاي عن حرب رواندا في 1994.

كلتا الروايتين احتاجتا، قبل كتابة مأساتيهما، لِثلاثة عقودٍ من تروما ما بعد الصدمة التي تعيشهما الجزائر ورواندا، جرّاء أبشعِ حربين أهليّتين في النصف الثاني من القرن العشرين.

ما يلاحظه القارئ، منذ بدء الروايتين، هولَ افتتاحيتَيْهما بصورٍ ورموزٍ تراجيدية من الحربين، ستظلّ داميةً ساخنةً لأمدٍ طويل. وكذا اختلاف تعامل البلدين مع ذاكرة التراجيديتين:

أغلقَ نظامُ الجزائر ملفَّ الحديثِ عن حربهِ الأهليّة، ومنعَ قانونيّا استحضارَها بعقوبات السجن والغرامة، كما تنصّ عليه المادة 46 من الميثاق القانوني، المنشورةِ في فاتحة الرواية؛ في حين لم ينفكّ البلد عن إحياء ونبشِ مآسي حرب التحرير من الاستعمار الذي سبقها بعقود.

فيما تحاول رواندا، على العكس من ذلك، علاجَ ما بعد الصدمة، وإن بصعوبةٍ شبهِ مستحيلة، لِهولِ هذه التراجيديا الطائفيّة المنحوتة بالسواطير، ولتجذّرِ الصراعات الطائفيّة هناك التي يلوح طيفها بين الآن والآن، حتّى اليوم.

لغة جائل فاي أنيقةٌ حديثةٌ دقيقةٌ أخّاذة، سبقها نجاحٌ مذهل لروايته الأولى السابقة: «بلدٌ صغير» التي بِيعت منها مليون ونصف نسخة!

ولغة داوود مترعةٌ بالشِّعر، صبَّ فيها تأمّلاتٍ وجدانيّةً آسِرةً، على إيقاعٍ يتناغم مع معاناةِ بطلتِها: فجر، الشابّة العشرينيّة الخرساء التي تحمل في الرقبة ندوبَ جراح حبالِها الصوتيّة الممزّقة؛ رمز الحرب الأهليّة الجزائريّة المكبوتة.
روايتان مؤثِّرتان جدا في كلِّ الأحوال (بغضّ النظر عن أيّ مآخذ شخصيّةٍ على هذا الكاتب أو ذاك، وعن مواقفهِ الخاصّة من هذه اللغة أو تلك، التي لا تخلو من الإثم أحياناً). ستذهب الجائزةُ إلى إحداهما، من يدري؟!

ثراءُ حروبِ عالمِنا العربيّ وفقرِ رواياتها

تعجّ العقود الأخيرة من التاريخ العربي بكلِّ ما يخطر ولا يخطر ببال من أنواع الحروب: حروب المقاومة الفلسطينيّة لإسرائيل، الحروب التحرُّريّة من الاستعمار، الحروب العالميّة–المحليّة (حرب العراق 1991)، القبليّة–السياسيّة (حرب 1986 في جنوب اليمن)، الحروب الأهليّة، الطائفيّة، الغزوات الدينيّة، حروب ثورات الربيع العربي...
بلاد العرب، في الحقيقة، فضاءٌ مزدحمٌ بالحروب والتراجيديات المتوالية. تحاولُ الروايةُ العربيّةُ قدر المستطاع الخوضَ في تضاريسه، لكنها تجدُ نفسَها عاجزةً غالبا عن سبرِ خِضمِّهِ وتغطيةِ جوانبِه، والتأثيرِ على القارئ العربي.

يُهِمُّنا هنا، كمشاركين في الندوة، تقديمَ شهاداتنا في كتابة سرديّات الحروب وتوثيقِها أدبيّاً وفنيّا.
موضوعٌ رئيسٌ سنناقشهُ في هذه الندوة: **خلاصات تجارب الأديبين واحة الراهب وعمر قدّور في مجال كتابة سرديّات الثورة، الحرب، المنفى.**

أسئلةٌ عديدةٌ جانبيّة ستفرضُ نفسَها علينا في هذا الإطار، سنناقشها ما استطعنا إليه سبيلا أيضا، منها:
---> ما مدى أثر الأمّيّةِ السائدة، وغيابِ الحريّة، وبؤس المستوى المعيشيّ للروائي والقارئ العربي، وغير ذلك من العوامل السلبيّة، في إضعاف تأثير دور الرواية العربيّة عموما على الحياة، وكيف يمكن مقاومة ذلك؟

---> ما مدى أثر ضعفِ المستوى التعليميّ العربيّ وتخلفِه، وغيابِ العقليّة العلميّة وضعف ثقافة العصر لدى المواطن العربي، في تكرّرِ هزائمنا وعدم استيعابنا لِتغيّرِ أشكالِ الحروبِ المعاصرة اليوم (بعد أن صارتْ تُمارَسُ بأسلحةٍ جديدة وروبوتاتٍ قاتلةٍ إباديّةٍ فتّاكة، تَستخدِمُ أحدثَ تقنياتِ الذكاءِ الاصطناعيِّ والتجّسسِ الإلكترونيّ. حروبٌ إلكترونيّة من طرازٍ جديد، توجَّهُ غالبا عن بُعد، دون حضورٍ بشريٍّ على أرض المعارك، أو أدنى مجالٍ لِلشجاعةِ والبطولات الإنسانية)، وكيف يمكن مقاومة ذلك؟

---> ما مدى أثر كلِّ تلك العوامل السلبيّة على غياب الروايات العربية القادرة على الاشتباك برهانات الحروب المعاصرة المختلفة كليّة عن حروب القرن العشرين: حروب «الروبوتات الذكيّة القاتلة» التي تفتك بمن تريد عن بُعد، دون مواجهة؛ بل الروايات العربية القادرة على اقتحام الزمن لاستقراء معالِم الحروبِ الجديدة القادمة، وآفاقِ الحياة العربيّة المستقبليّة في عالمٍ يسيرُ على إيقاعِ تطوّراتِ الذكاءِ الاصطناعي واكتشافات البيولوجيا الحديثة؟